آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية
السنة التاسعة عشرة، العدد الأول، الربيع و الصيف ١٤٣٧ هـ .ق، ١ – ٢٤

صراع البطل في القصة القرآنية

شخصية النبيّ موسى (ع) أنموذجاً

محسن تيموري*

محمدحسن معصومي**

الملخص

تحتلّ القصة حيّزاً واسعاً من مساحة الفضاء النّصيّ للقرآن الكريم، و يشكّ البطل العصب الرئيس فيها، حيث يساهم و بزَخم عال في تحريك أحداثها وفي إضفاء الحيوية والنشاط عليها و كذلك في الكشف عن أفكارها؛ و بينما أنّ الأنبياء والرسل هم من أبرز الأبطال في القصص القرآني، على أنّ النبيّ موسى (ع) من أكثرهم حضوراً في مشاهده، لكن يتميّز هذا الحضور بأدوار دراماتيكية يقوم بها في مواقف عديدة وهذا ما نتناوله في هذه الورقة البحثية. أما المنهج الذي وظفناه لإخراج هذا البحث فهو تحليلي ــ توصيفي نشفعه إذا لزم السياق ببعض المقارنات في مسعى متواضع للتوصل إلى نتيجة مفادها أن النبيّ موسى (ع) مع كلّ ما عاناه من أحداث جسام وما قاساه من مهمّات عصيبة لم يتوان لحظة عن السعي لإنقاذ عباد الله المستضعفين في الأرض وانتشالهم من براثن الجهل والتخلّف. وقد تميّز بذلك عن البطل في قصص الأمم الأخرى وأساطيرهم التي تمخض في معظمها عمّا تصطنعه أخيلة البشر. وعلى العموم فإنّ موسى (ع) يعدّ من أبرز الشخصيات القصصية في التاريخ الإنساني. إنّ الغرض الأساس من هذه

* الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، مدرس اللغة العربية في دائرة التربية والتعليم (الكاتب المسؤول)
Teymoori.Mohsen@yahoo.com

** أستاذ مساعد فى اللغة العربية و آدابها بجامعة آزاد الإسلامية، فرع قم، Dr_masumi@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٥/٣/١٧، تاريخ القبول: ١٣٩٥/٤/٢٨

الدراسة هو التعريف بشخصية النبي موسى عليه السلام باعتباره بطلا من نوع متميز، إذ خاض صراعاً مريراً مع أكثر من جهة وفي ظروف ملئتها المفارقات. والنتيجة هي أنه وكلّ ما عاناه من صعوبات خرج شخصية رسالية خالدة عزيزة عند ربّه.

الكلمات الرئيسة: القصة القرآنية، البطل، النبيّ موسى (ع)، الصراع.

١. المقدمة

الرحلة مع قصة موسى بن عمران (ع) في *القرآن الكريم* رحلة إيمانيّة مدهشة وممتعة تعكس شخصية نبيّ حمل طوال مسيرته الدعوية هموم إنسان عرف الله فعبده حقّ العبادة، شأنه كشأن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد عاش النبيّ موسى (ع) صراعات مضرية وأحداثاً جساماً تجشّمها لرضاه، سبحانه وتعالى، فقد واجه أشرس وأعتى الطواغيت الذي ادّعى الألوهية فعاث في الأرض فساداً وطغى، ولم تلن لموسى قناة في مواجهته لنصرة الحق وإعلاء كلمة التوحيد. ثمّ كان له صراع من نوع آخر مع قومه الذين اتسمت شخصيات كثير منهم بالنكوص والتخاذل والمزايدة واختلاق المعاذير، فعانى معهم ما عاناه خاصة مع كبيرهم الذي أمعن في سلوك أحمق كاد القوم أن يتردوا معه لولا تدارك موسى الموقف.

فقد صار موسى (ع) أنموذجاً تاريخياً بل بطلاً قلّما عرفت البشرية مثله عبر تاريخه المتطاول. ثمّ إنّه بلغ من المكانة مبلغاً إيمانيّاً سامياً استحق بها أن يكلمه الله؛ ثمّ أعطاه من المعجزات ما يتناسب وظروف تاريخية عاشها وعقلية أقوام عاشوا آنذاك. مع كلّ ذلك كان له شأنه مع نفسه ومع ما بدر منه من تعجل أو تسرع وأحياناً من غضب وعتاب شديدين. كما بدا أحياناً إنساناً غير مطلع على كنه بعض الأمور والحقائق مثلما التقى بذاك العبد الصالح الذي علّمه من الحكمة ما كان خافياً عليه. كذلك عاشرته شخصيات ذات تأثير على حراكه الرسالي والاجتماعي؛ منهم رجال ومنهم نساء. وبذلك أصبح موسى شخصية منفردة يضرب به المثل في تحمّل المشاق ومقاساة المصاعب.

أمّا في هذه المقالة فقد عالجنا مجالات صراعه المتعدد الأطراف في مسيرته الدعوية وذلك من خلال عناوين رئيسية وأخرى فرعية كالتالي: فقد حدّدنا أوّلاً مصطلحين هما مصطلح «البطل» ومصطلح «الصراع» ثمّ بيّنا العلاقة القائمة بين البطل ومضمون القصة التي يلعب فيها دوره وأخيراً قسمنا البحث إلى:

أ) صراعه الخارجي، حيث تمّ التركيز فيه على الصراع بينه وبين فرعون وملائه و السحرة موضحاً ملابسات هذا الصراع. فانتقلنا بعد ذلك إلى الصراع الذي قام بينه وبين قومه الذين اتسمت شخصياتهم، كما قلنا، بالمزايدة والجبن والتخاذل واختلاق المعاذير والكفر والتعالي. عرضنا بعد ذلك لصراعه الدقيق مع شخصية مخادعة فهو السامري الذي أخرج للقوم عجلاً وحثّهم لعبادته.

ب) صراعه الداخلي ونقصد منه مجالاته الشخصية التي كان يعاني منه طوال حياته، سواء قبل الرسالة أم بعد ذلك. فقد وسمت شخصيته حالات مثل: التعجل والتسرع، والندم وطلب الغفران وأحياناً النسيان والخوف والقلق.

ج) تناولنا إثر ذلك موضوعة حراك البطل والمؤثرات البيئية والإنسانية واستعرضنا في هذا السياق رموزاً كان لموسى معها شأنه، كالعصا باعتبارها وحدة سيمائية بارزة ومؤثرة في رسالته والتي كانت تتمتع بحضور لافت ومثير للانتباه. وهناك عناصر بيئية أخرى ذات تأثير في حراكه، كالجبل وتحديداً شاطئ الوادي الأيمن من البقعة المباركة؛ ثمّ البحر الذي انفلق فصار طريقاً لنجاة قومه من بطش فرعون.

وكان له ظهور مختلف تماماً حين مواجهته بعض الشخصيات الإنسانية كظهور في محضر العبد الصالح الذي كان يمتلك ما لم يمتلكها المعروفون بمواقعهم الإجتماعية، فقد تعلّم منه حكماً بالغة. وكانت هنالك شخصيات ثانوية ساهمت في تكوين حراكه الرسالي، كالنبي شعيب الذي التقى به موسى في مدين، ثمّ بعد ذلك زواجه من بنته. وهناك أيضاً أخاه هارون الذي شدّ أزره وشاركه أمره ومؤمن آل فرعون وهو رجل ذو حضور فاعل في قصة موسى. وهناك شخصيات سلبية؛ مثل هامان وقارون اللّذَين ظهرا في الساحة وكان لهما تأثيرهما على القوم.

تعتمد هذه الورقة في منهجها البحثي، أسلوب الوصف فالتحليل، حيث يتمّ أوّلاً تسجيل النماذج المختارة المتصلة بالبحث، ليتمّ إثر ذلك تحليلها، تحليلاً أدبياً عقائدياً.

٢. أسئلة التحقيق

١. هل تميزت شخصية موسى (ع) في *القرآن* بحضور صارخ وهل اتسمت هذه الشخصية بالمفارقة السلوكية التي تكشف عن أوضاعه الإنسانية والتي تعود إلى طبيعة صراعاته المريرة مع أكثر من شخص وأكثر جهة، وإذا كان هكذا كيف طغت هذه الأوضاع على شخصيته الإلهية المتعالية؟

٢. ما الذي حصل لموسى (ع) من المعاناة ما ميزه عن غيره من الأنبياء، وكيف صدمته مواقف خصوم نصبوا له العداء (فرعون أتباعه) أو أبناء قومه ممن لم يطيعوه (بني إسرائيل) حتى اضطر إلى الدخول معهم في المواجهة الصعبة أو تحمل الأذى منهم، وما الذي جعله أن يكتسب في غمرة هذه الظروف المتضاربة تجارب إيمانية ثرة، خاصة من خلال مرافقته الرجل الصالح؟

فأما فرضية البحث فتبرز من خلال التركيز على شخصية موسى (ع) ودراسة جوانب من حياته التي عرض لها *القرآن الكريم* نطلع على شخصية تبدو عصابية متسرعة في اتخاذ بعض قراراته ومواجهاته مع الصالحين والطالحين على حدّ سواء ولعل هذه الطبيعة عائد إلى ثقل همومه الرسالية في أداء المهمة الإلهية، ويمكن القول أنّ هذه الأوضاع الروحية دفعته إلى اتخاذ مواقف يبدو وكأنها غير منسجمة مع شخصية الرسالة، فضلا عن ذلك فلعل هناك شكوك ساورته أنه ليس باستطاعة النهوض بالمسؤولية الموكلة إليه، فأصابه نوع من الأحباط تمثل في ما بدرت منه من سلوك لا ينسجم مع توجهه الإيماني مع هذا كله فإنه ظل ثابتا على عهده مع الله في قهر الأعداء وإرشاد العباد.

أمّا غاية البحث فهي التأكيد على أنّ الشخصيات القرآنية الإيجابية، مرّوا بتجارب إنسانية مثلما الآخرين، كما جرّبوا صراعات عكست واقعهم الإنساني مع كلّ ما فيه من اهتزازات وهيجانات على الرغم من كونهم شخصيات بارزة اختارهم الله ليكونوا رسله على العالمين.

٣. خلفية البحث

أمّا فيما يتعلق بسابقة البحث أو خلفيته، فقد عالج غير واحد من الباحثين حياة الأنبياء في تقلباتها واهتزازاتها، حيث خرجوا بنتائج مثيرة، كما تناول بعضهم الجوانب الفنية المتعلقة بمواقفهم وكلماتهم ومن أهم المؤلفات التي عرضت لقصة موسى (ع) كتاب *القصة في القرآن الكريم* لمحمد سيد طنطاوي وكتاب *الإعجاز القصصي في القرآن* لعبد الدائم الكحيل وكتاب *قصص القرآن* لعبد السلام علّوش و كتاب *قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً* و غيرها من مؤلفات استعرضت الجوانب الفنية والعقدية لقصة موسى (ع)، غير أنّها، كما نزعم، لم تعرض بشكل مباشر إلى صراعات سيدنا موسى (ع) في بحث مستقل يستوفي جوانب تلك الصرعات فنياً وعقدياً، أمّا هذا البحث فقد تصدى لهذه المهمة الدراسية مستفيداً من عديد من المصادر القديمة والحديثة في لفتاتها الذكية.

٤. المفاهيم

قبل الخوض في غمار البحث لا بدّ أوّلاً من تحديد مصطلحين لهما صلة وشيجة بالموضوع وهما:

١.٤ مفهوم البطل

يشكل البطل أو الشخصية بما يقول ويفعل عصب القصة لكن بشكل عام «الشخصية وحدة سردية مهمّة في أيّ عمل قصصيّ وقد تحتلّ المكانة الأولى والثانية من عناية الراوي على أساس أن ثمة فروقاً فنّية في المعالجة السردية بين نوعين من القصص: قصة الحدث وقصة الشخصية. في النوع الأوّل تكون بؤرة التركيز على الفعل وفي الثاني تكون البؤرة مركّزة على الفاعل. أيّاً ما كان نوع القصة، فإنّ الشخصية تعدّ أهمّ عناصر البنية السردية، لأنها أوّلاً وأخيراً تمثل الإنسان الذي نكتب عنه وله في آن واحد» (طه وادي، ٢٠٠١: ٢٠٠).

٢.٤ مفهوم الصراع

اقترن ظهور مفهوم الصراع مع طبيعة العمل المسرحي منذ نشأته لدى الإغريق بالصراع بين الآلهة وبين البشر؛ أمّا في الأدب الأوربي فقد أصبح الصراع «مع ظواهر الكون وظواهر الحياة الإجتماعية في مجالات الجنس والاقتصاد ونحوهما، لدرجة أنّ رسم الشخصية متصارعة مع نفسها ومع الآخرين ومع الكون أصبح حقيقة لا مناص منها» (البستاني، ١٤٢٢: ٢٤٢-٢٤٣) يعدّ عنصر الصراع من العناصر البارزة في القصص القرآني.

عن التصوّر الإسلامي لمفهوم الصراع يقول محمود البستاني: «إنّ رسم الشخصية متصارعة لا جناح فيه، لكن مع صياغه الموقف بنحو يفضي بها إلى التغلب على الطرف السلبي، كما هو الملاحظ في شخصيات السحرة في قصص موسى (ع) وصياغة الموقف بنحو يستتبع النفور من الشخصية الفاشلة في صراعها، وعدا ذلك فإنّ صياغة الشخصية المتوازنة لا تحيا الصراع تظلّ من الأهداف الرئيسية في التصور الأسلامي للموقف» (المصدر نفسه: ٢٤٣-٢٤٤) إذن يمتاز الصراع في القصص القرآني بانسجامه التامّ الواضح مع المغزى العامّ له، ألا وهو الهداية والدعوة إلى الإيمان وإلى التمسك بالأخلاق الكريمة والاتصاف بالشيم النبيلة.

٣.٤ العلاقة بين مضمون القصة والبطل

تتضح ملامح البطل في شخصيته من خلال استعراض مضمون القصة، وبتعبير آخر لمضمون القصة دور بارز في التعريف بخصائص البطل. فإذا كان المضمون رسالياً، مثلاً، يختلف موقف البطل منه إذا كان المضمون غير ذلك؛ وعلى العموم «ثمّة علاقة قوية بين مضمون القصة وطبيعة الشخصية المحورية التي يقع منها الفعل أو تقوم به. إنّها شخصية إنسان مأزوم قلق متوتر مهموم في اللحظة العابرة المتخيّلة بالبحث عن مخرج لأزمة يبدو عاجزاً عن مواجهتها وإيجاد التوازن معها» (طه وادي، ٢٠٠١: ١٩٩).

إذن تفصح الشخصية عن وجودها الحقيقي في مواجهة الأزمات التي تدفعها إلى أنواع السلوك والحديث، ما كانت لتصدر عنها في ظروف عادية ثمّ «لا شكّ أن سلوك

الشخصية وما تأتيه من أفعال وما تتصرف به في بعض المواقف خير وسيلة تفصح عن طبيعة تلك الشخصية وقيمها وتكوينها النفسي والخلقي والفكري أو غير ذلك من جوانب النفس الإنسانية» (عبد القادر، ٢٠٠٩: ٢١).

من خلال مراجعة السورة القرآنية نجد نمطين من الصراع القصصي يخوضها البطل في سياق حراكه الدعوي أم غيره وهما:

أوّلاً: الصراع الخارجي الذي يدور بينه وبين جهات مختلفة، وفيما يتعلق بهذا الأخير قد يتخذ البطل، حسب ما يقتضيه الموقف، استراتيجيتين أو أسلوبين في المواجهة وهما، أوّلاً: الأسلوب الحجاجي، وثانياً: الأسلوب الفعلي أو الممارساتي.

وثانياً: الصراع الداخلي وهو صراع دائر في دخيلة البطل لأسباب أو لأخرى، لقد خاض النبي موسى كلّ هذه الأنماط من الصراع خلال فترة رسالته أم بعدها. وفي السبين نستجلي ملامح صراعاته المتمثلة في:

١.٣.٤ الصراع الخارجي

المقصود من الصراع الخارجي مواجهة صاحب الحق وهو سيدنا موسى (ع) مع أصحاب الباطل وكانوا خصوماً يفضلون الغي على الرشد وقد عانى منهم ما عانى من المرارة. يدور هذا النمط من الصراع بين موسى (ع) وأطراف مختلفة، منها:

١. الصراع بينه وبين فرعون وملائه والسحرة: وهو من أبرز صراعاته وأكثرها إثارة للاهتمام؛ أمّا بؤرة الصراع هنا فهي ممارسة فرعون العلوّ في الأرض والتفرقة بين الطوائف واستضعاف الناس كما صرح بذلك *القرآن الكريم* في قوله تعالى: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (القصص: ٤) أمّا البؤرة الثانية فكانت مطالبته فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل إذ كانوا يتعرضون لبطشه وبطش الأقباط، لذلك قال له موسى: «... فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» (الأعراف: ١٠٥) هكذا يتضح أحد محاور الصراع وهو الحرّية، إذ «إنّ مسألة الحريّة هي أغلى من كلّ المتع والمنافع التي يقدمها السادة للعبيد، لأنّ الحرّية تعني

الارتفاع بالإنسانية إلى المستوى الأعلى في رحاب الحياة، بينما العبودية، تعني الانحطاط بإنسانية الإنسان إلى أسفل دركات الحياة» (فضل‌الله، ١٤١٩: ج ١٠، ١٠-٢٢) والظاهر أنّ إثارة موسى لقضية بني إسرائيل في ما طلبه من فرعون من إرسالهم معه، يُعدّ مدخلاً للدخول في صراع أهمّ وهو قضية الوحدانية الإلهية كما تنطوي على مهمّة فنّية نفسية تتمثل في مدى خيانة الإسرائيلين ونسيانهم لنعم السماء عليهم وإسرافهم في المنكرات.

ومع فرعون يظهر معارضون آخرون يساندونه ويطلبون منه أن يشدّد على موسى (ع) وهم «الملأ» حسب التعبير القرآني، حيث قال تعالى: «قالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هـذَا لَساحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُمْ فَماذَا تَأْمُرُونَ» (الأعراف: ١٠٩-١١٠) وعلا الملأ هنالك هامان وقارون كان بينهما وبين موسى (ع) صراع أحدهما من أصحاب السلطة وهو وزير لفرعون والثاني من أصحاب المال كانت له كلمته. وللخروج من مأزقهم اقترح معسكر فرعون الاستعانة بالسحرة لحسم الصراع بعدما خسروا الحجاج و لم يعد لديهم ما يقولونه وهكذا برز في الساحة خصم جديد إلا أنّ هذا الخصم طرأ تغيير على عقليته، فلمّا شاهد السحرة معجزة موسى غيّروا موقفهم منه «وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدينَ» (الأعراف: ١٢٠) فالطريف في أمر هؤلاء أنهم تقاضوا بداية من فرعون أجراً إزاء الغلبة على موسى «قالوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنّا نَحْنُ الغالِبينَ» (الأعراف: ١١٣) لكنّهم انقلبوا فجأة إلى شخصيات مختلفة رفضوا الإيضاح لحكم فرعون بل انضمّوا، بعد ما رأوا المعجزة، إلى معسكر الحق الذي يتزعمه موسى واستعدوا الدفع الثمن هذا الانضمام وهو القتل بأبشع صورة، حيث هددهم فرعون بقوله: «لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ» (الأعراف: ١٢٤) واللافت فنياً أنّ موسى لم يبدأ المواجهة معهم حينما قالوا: «قَالُوا يَا مُوسَى إِمّا أَن تُلْقِيَ وَإِمّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى» (طه: ٦٥) بل فسح المجال لهم أن يلقوا ما عندهم من الحبال والعصيّ «فإنّه هو الموقف الذي كان لا بدّ أن يتخذه حيث يُفرغ القوم كلّ ما في أيديهم، ثمّ إذا ضربهم الضربة القاضية لم يكن لقائل أن يقول إنّه لم يتح لهم فرصة كي يعملوا فيه أسلحتهم، ولو أتيح لهم هذا فلربّما قضوا عليه قبل أن يقضى عليهم» (الخطيب، ٢٠١٠: ج ١٥، ٧٩١-٧٩٢).

وفي أحدى حوارات سورة «طه» يدير موسى حواراً ذكياً مع فرعون حينما يسأله هذا الأخير «فَما بالُ الْقُرونُ الْأُولَى» (طه: ٥١) حيث «يحاول الهروب من ذلك بتوجيه المسألة إلى اتجاه لا يثير الجدل بإيكال الأمر إلى الله في الأمور التي أحاط بها علمه؛ هكذا لا يريد توسعة مجال الصراع وخلق جوّ عاطفي في المجتمع المحيط بموسى يدفع هؤلاء باتجاه الدفاع عن آبائهم الذين يرميهم موسى بالضلال ويحكم عليهم بالعذاب وهذا أسلوب ذكي للخروج من أجواء الجدل الضائع الذي لا يؤدي إلى نتيجة ويدخل الحديث في متاهات انفعالية لا مجال للخروج منها» (فضل‌الله، ١٤١٩: ج ١٥، ١٢١).

أمّا اللافت في مواجهته فرعون أنّه يبدأ معه بتقديم أدلّة فكريّة قبل أيّ عمل آخر أي يقدم الصراع الحجاجي على الصراع الممارساتي خلافاً لموقفه من السحرة، حيث ترك المجال لهم أن يسبقوه في ممارستهم السحر ثمّ أفحمهم بصراع حجاجي صامت وحاسم تغيرت إثره نفسيتهم تماماً. عموماً لما رأى فرعون أنّه يخسر الحجاج، دخل في لعبة لفّ ودوران شأن من يجد نفسه خالي الوفاض من الحجة؛ فمنّ عليه بأنّه هو الذي ربّاه فقال له: «قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فينا وَليداً» (الشعراء: ١٨) و لم يكتف بذلك بل راح يسخر من رسالته بقوله: «وَما رَبُّ الْعالَمينَ» (الشعراء: ٢٣) كما سخر منه: «وَقالَ فِرْعَوْنُ يَا هامانُ ابْنِ لي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ» (قصص: ٣٨) ثمّ صعّد من وتيرة غضبه بأن اتهمه بالجنون حين قال مخاطباً قومه: «إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ» (الشعراء: ٢٧). أخذ الصراع بعد ذلك يتصاعد حين بلغ به التضايق من موسى حدّاً هدّده بإنزال عقوبة السجن عليه حيث قال له: «لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْري لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونينَ» (الشعراء: ٢٩). لكنّ موسى لّما رأى منه هذا الموقف المتشدد لم يفقد رباطة جأشه في مواجهته بل جرّب الاقناع بأسلوب جديد وهو إظهار المعجزة، لذلك قال: «أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبينٍ» (الشعراء: ٣٠) وهكذا نقل ركيزة الصراع من الحجاج إلى الممارسة أو المواجهة الفعلية «فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ» (الشعراء: ٣٢). من الملاحظ في هذا الحوار أنّه اعتمد في صراعه أسلوب التدرّج المرحليّ في الدعوة فتدرّج من الحجاج الفكريّ إلى الصراع الفعليّ. ويبلغ الصراع ذروته حينما يأخذ موسى معه بني إسرائيل بوحي من

الله «وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبادي إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ» (الشعراء: ٥٢). ولّما تعقّب فرعون وجنوده موسى وقومه استعان موسى وبأمر من الله بعصاه «فَأَوْحَيْنا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ» (الشعراء: ٦٣).

هكذا يختتم هذا المشهد القصصي لصالح البطل موسى المنصور بالله و كان انتصاراً للحقّ على الباطل وانهزاماً لقوى الشرّ والضلام.

وهناك من يستنتج أنّ الصراع الدائر بين موسى وفرعون لا يمثل حالة تاريخية فريدة مضت وانتهت بل هو الموقف الدائم في صورة صراع مستمر في الحياة بين الإيمان والكفر، والحرّية والاستبعاد، والعدل والظلم.

٢. الصراع بينه وبين قومه: يشكل بنو أسرائيل أحد أخطر الأزمات التي واجهها سيدنا موسى (ع). فقد عانى منهم ما عانى في مواقف عديدة كشفت فيها هذه الطائفة عن طبيعتها وهي طبيعة تطبعها المراوغة واللجاجة والالتواء. ويمكن استعراض أهمّ هذه الطبائع على النحو الآتي:

أولاً، المزايدة: تاريخياً عرف بنو إسرائيل بطلب المزيد من كلّ شيء، حتى يذكرهم الله تعالى بطرف من مزايداتهم بقوله: «وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ...» (البقرة: ٥٥) وبقوله تعالى: «وَإِذْ قُلْتُمْ ... وَبَصَلِها» (البقرة: ٦١) الملاحظ أنّ المزايدة الأولى عقدية تتعلق بالتوحيد، بينها المزايدة الثانية اقتصادية تكشف عن عدم قناعتهم.

ثانياً، النكوص والتخاذل: لقد بدرت منهم تصرفات رعناء تفصح عن الجبن الذي تأصل فيهم؛ منها نكوصهم عن قتال قوم جبّارين اغتصبوا الأرض المقدسة. وجاء هذا النكوص بعد ما طلب منهم موسى دخولها بالقتال «قالُواْ يا مُوسَى إِنّا لَن نَدْخُلَها أَبَداً مَا دَامُوا فيها» (المائدة: ٢٤) و لم يكتفوا بهذا الرفض المخجل بل طفقوا يسخرون من موسى بقولهم: «فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قَاعِدُونَ» (المائدة: ٢٤) حتى تضايق منهم البطل فلم يرى مناصاً إلّا أن يخاطب ربّه: «قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسي وَأَخي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ» (المائدة: ٢٥) فكان الخاسر الأكبر في هذه المواجهة هم بنو إسرائيل إذ كان مصيرهم التيه أربعين سنة والحرمان من دخول الأرض المقدسة «قالَ فَإِنَّهَا

مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» (المائدة: ٢٦) وثمّة خيط يربط بين أصحاب الباطل؛ فرعون وملائه من جهة و بني إسرائيل من جهة أخرى وهو أنّهما كلّما يخسران الصراع الحجاجي يلجآن إلى أسلوب الهزء والسخرية ممّا يدلّ على خفّة عقول الطائفين وفقدانهم العدّة الفكرية والمنطقية.

ثالثاً، اختلاق المعاذير: لعلّ هذه الخصيصة هي أشهر ما عرف به إسرائيليون على مرّ تاريخهم، نلحظ مشاهدها في عدة سور؛ منها سورة بقرة وتحديداً قصة إحياء الميّت الواردة فيها «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» (البقرة: ٦٧-٧٣) المهم في هذه القضية هي «أنّ قصة إحياء الميت وما واكبها من التفصيلات، تظلّ مرتبطة بأحد المحاور الفكرية لسورة البقرة وهو محور السلوك الإسرائيلي المنحرف» (البستاني، ١٤٢٥: ج ١، ٣٨-٣٩). كذلك نلمس في هذه الأقصوصة وقوف البطل (موسى) من طلبات القوم موقف الحكيم الصبور بالرغم ممّا مارسوه عليه من ضغوطات لمعرفة القاتل، ومع كل ما واكب الطلب من تمرّد وتشكيك وتحفظ بليد إلّا إنّه وفي سياق أداء مهمته الرسالية لم يخرج عن طوره و لم يواجههم مواجهة حادّة مهما كابد منهم من مشاق.

رابعاً، الكفر والتعالي: وهذا مظهر آخر من مظاهر اعوجاجهم في السلوك والفكر. فقد قالوا: «... يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ» (الأعراف: ١٣٨). وكانت مشكلتهم أنّهم لم يأخذوا قضية الإيمان كقضية الفكر والحياة بل أخذوها كوسيلة للخلاص من العبودية (عبودية فرعون). أمّا فيما يتعلق بالأسباب الاجتماعي التاريخي لهذا الفكر والتعاظم فيقول أحد المفسرين: «إنّ التاريخ الطويل الذي عاشوه في أجواء الظلم والطغيان والشرك قد ترك تأثيراً بعيداً على الملامح الداخلية والخارجية لشخصياتهم» (فضل‌الله، ١٤٣٩: ج ١٠، ٤٨).

وعلى العموم فإنّ هذه الوقفات المرضية يفسرها القول المأثور: «إنّ الأنبياء يتكاثرون بأممهم وكثرتهم إلّا موسى بن عمران» (الري شهري، ١٣٧٥: ج ٩، ٤٥٨).

أمّا النتيجة التي نخلص إليها من خلال استعراض مواقف بني إسرائيل من نبيهم هي أنّ

النبي موسى (ع) بعث إلى قوم طال عليهم العهد بالهوان والذلّ، وطال بقاءهم في جوّ يخلو من الحريّة، وطال مكوثهم وسط عبادة الأصنام، ولقد نجحت المؤشرات النفسية المتلوية الخائرة المهزومة التي لا تصلح لشيء إلّا أن تعذّب أنبياءها ومصلحيها. ومن خلال هذه الرؤية التحليلية الاجتماعية، والنفسية التاريخية يمكننا تبرير موقف موسى (ع) منهم، حيث يختلف هذا الموقف عمّا عهدناه من أنّه إنسان متسرع متعجل عصابي المزاج يبطش بأعدائه بل نراه ذا طمئنينة وتروّ يكتفي بإبداء التضايق منهم أو الدعاء عليهم. إذن يتحول سلوك البطل موسى إلى الاعتدال والعمل وفق ما تمليه الظروف أو طبق ما تقتضيه الرسالة السماوية، فلا مجال عنده للأهواء أو الرغبات الفردية المحمومة، كما نلحظ عند الأبطال في الروايات القصصية حينما يصدمهم تمرد أقوامهم فتشط بهم الوساوس والأهواء إلى ممارسات غريبة وغير معهودة ذات النتائج السلبية.

٣. الصراع بينه وبين السامري: يمثل صراع موسى والسامري حلقة أخرى من حلقات الصراع الدائر بينه وبين بني إسرائيل والعلّية منهم بوجه خاص. فقد ظهر السامري على مسرح الصراع كشخصية مخدوعة غير سوية نفسياً. أمعن في سلوكه الأحمق «فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هَذا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ» (طه: ٨٨) و لم تكن هذه الخدعة معروفة لدى موسى و لم يكن يتوقع منهم مثل هذا الالتواء في التصرف إلّا حين أخبره ربّه وقتما حضر ميعاد الطور «فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ» (طه: ٨٥) وعندها يرجع موسى غضبان أسفاً فيرمي بالألواح وفيواجه أخاه مواجهة حادّة ويبدأ بمعاقبة القوم سبب إخلافهم موعده، بيد أنهم يختلقون بعض الأعذار ثمّ يوجهون أصابع الاتهام إلى السامريّ بأنّه هو الذي أثار هذه الفتنة ولمّا يلتفت إلى السامريّ مؤاخذاً إيّاه، يزعم السامري أنّه بصر ما لم يبصره القوم.

ويبرّر فعلته الشنعاء أنّ نفسه سوّلت له هذا «قَالَ بَصُرْتُ ... سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي» (طه: ٩٦). الملاحظ هن أنّ موسى لا يمارس معه أسلوب التعنيف بأنّ يبطش به أو أن يمدّ يده نحوه ليجترحه كما فعل مع أخيه، حيث أخذ بلحيته ورأسه إفراغاً لفورة غضبه، بل اكتفى بأن يدعو عليه كما فعل مع القوم من ذي قبل في قصة غروفهم عن دخول الأرض المقدسة، فقال في حقه: «فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِساسَ» (طه: ٩٧).

٢.٣.٤ صراعه الداخلي

المقصود من الصراع الداخلي هو ما يقايسه البطل من تجاذباته روحية وعاطفية دائرة في طوايا نفسه مبعثها مثيرات خارجية إيجابية أو سلبية حيث يبحث البطل لمخرج منها والتخلص من ثقلها.

إنّ البطل القرآني المختار يعتمد على الله في كلّ صغيرة وكبيرة ويتوكل عليه في كل ما يقوم به من أعمال، لذلك يعصمه الله، وطبقاً للرؤية الإسلامية، من السقطات العظمى والهفوات الكبرى التي تضر بعملية الدعوة. فهو عبد صالح يطيع ربّه في كلّ موقع وموضع، إلّا أنّ هذا لا ينفى صدور تصرفات أو سهوات قد تبدو غير مستساغة، ثمّ إنّها ظاهرة طبيعية نظراً للتركيبة الروحية والجسدية للإنسان ونظراً لطبيعة النفس الإنسانية التي لا تستطيع بحال أن تتخلص من ضعفها أبداً. وفيما يتعلق بشخصيته النبي موسى (ع) كان سلوكه العامّ يتميز بالانفعال والاندفاع وهذا سبب له بعض الحرج في بعض المواقف.

وتجدر الإشارة أنّ «شخصية البطل لا تتضح ملامحها إلّا من خلال التركيز على إبراز السلوك العامّ والرغبات والآمال وطريقة التفكير وتقدير الانفعال والمزاج والعقد النفسية، إن وجدت، وأثر الوراثة على سلوك الشخصية» (الدقاق، ١٤٣٦: ١٠١).

هذا وتتميز شخصية النبي موسى (ع) بخصائص فكرية وسلوكية تلمح أو تصرح بها الآيات القرآنية وإنّها تتمثل في:

١. التعجل والتسرع: تبرز هذه الشخصية في قوله تعالى: «وَما أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى» (طه: ٨٣) وذلك «حين تعجّل مفارقة قومه ليحضر إلى المناجاة قبل الأبّان الذي عيّنه له، فلامه على أنّه غفل ما يحفّ بذلك من ابتعاده عن قومه قبل أن يوصيهم بالمحافظة على العهد ويحذّرهم مكر من يتوسم فيه مكراً» (ابن عاشور، ١٩٨٤: ج ١٦، ١٦٠-١٦١).

وكذلك تعجله معرفة أسباب ما قام به العبد الصالح «خضر» في قصة خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار، ممّا يكشف عن نوع من التعجيل الناجم عن توتره النفسي، وهذا ما ألحق به بعض الأضرار حسب جاء ما في الحديث: «رحمة الله علينا وعلى موسى لو

صبر لرأى من صاحبه العجب ولكنّه قال: «قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا» (الكهف: ٧٦) (الري شهري، ١٣٧٩: ٤٦٩).

وربّما لم يطلب منه ربّه أن يدعو فرعون بالقول اللين إلّا لما كان يعرف منه، من التعجل في الأمور والتسرع فيها، وهي طبيعة لا تتناسب مع القول اللين.

٢. الندم وطلب الغفران: الندم يأتي نتيجة للقرار العاجل والتنفيذ السريع، نلحظ أحد مصاديق ذلك في قصة قتل القبطي دفاعاً عن الرجل الذي كان من شيعته، حيث ندم على فعلته وقال: «رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نفسي» (القصص: ١٦) فقد تأذّى موسى نفسياً لما اجترحته يده، ثمّ كادت تصدر منه محاولة ثانية حين تأهّب ليبطش بقبطيّ آخر في حادثة متشابهة. وثمّة أسئلة ملحة تتصل بهاتين المحاولتين تخطر على ذهن الملتقي وتجعله في حركة فكرية حثيثة يستحضر من خلالها خبراته المتنوعة لفهم هذه الظاهرة وتدفعه إلى تساءلات تتعلق بمواقف صدرت من البطل (موسى) يضاد بعضها بعض «فلو كان طلب النجدة أمراً مشروعاً فلماذا يوبّخ صاحبها حينما استصرخه؟ وإذا كان أمراً غير مشروع فلماذا يحاول أن يبطش بالقبطي؟ وإذا افترضنا أنّه أمر مشروع فلماذا يخضع للتهديد ويهرب من القبطي؟ وإذا افترضنا أنّه غير مشروع فلماذا ينتصر من خلال هذه المحاولة لصاحبه؟» (البستاني، ١٤٢٥: ج ٢، ١٤٤-١٤٥).

وفي سياق متصل نلحظ أنّ موسى يتخذ قراراً سريعاً ويتراجع عنه بنفس السرعة حينما يغضب للّه في قصة السامري لّما غرّر القوم واستدرجهم لعبادة العجل، فنراه هناك يرمي بالألواح ويأخذ بلحية أخيه وبرأسه في سرعة وخفّة ثمّ في سرعة أيضاً يتراجع ويستغفر الله له ولأخيه ممّا يدلّ على أنّ اندفاعه يقترن عادة بتراجع وهذا يعكس مزاج الإنسان العصبيّ.

٣. الخوف والنسيان والقلق: هذه الميزات التي طبعت شخصية موسى (ع) حدثنا عنها *القرآن الكريم* في غير موضع. هذه الظواهر الخلقية يمكن تفسيرها من خلال استرجاع أطوار حياته الاستثنائية، منذ أن كان في بطن أمّه وكانت الأمّ تعيش توتراً وقلقاً «فقد ولد موسى في حال كان فرعون فيها مضيّقاً الخناق على بني إسرائيل مسلطاً أعوانه على كلّ مولود ذكر يولد لهم، وكانت أمّ موسى حاملاً به حاملة معه الهمّ الثقيل الذي يؤرق ليلتها ويشقى نهارها. إنّها تحمل في كيانها وليداً تستقبله يد الذابحين إذ أطلّ بوجهه على

هذه الدنيا، بل ربّما أخذته يدهم قبل أن يولد فشقوا بطنها عنه وأخذوها حيّاً وميّتـاً» (عبد الكريم الخطيب، ٢٠١٠: ج ١٥، ٧٩١-٧٩٢) والخوف الذي يعتريه عبرت عنه اللفظة ومشقاتها في آيات متعددة، منها آيات (١٨ و ٢١ و٣٣) من سورة قصص، وآيات (٢١ و ٤٤ و ٤٥ و ٦٧ و ٧٧) من سورة طه والآية (١٠) من سورة النحل. وعلى العموم فإنّ الخوف بات الفكرة التي كانت تسود الوعي والدواعي عند النبي موسى، حتّى في وقت تكلم مع الله ولكنّه لم يعترف بها بل وضع لتبرير خوفه حججاً وأدلّة إلى أن خاطبه الله بقوله: «لا تَخافا إِنَّني مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرَى» (الكهف: ٧٣).

أمّا النسيان والذي فقد يكون ناتجاً عن التعجل أحياناً، فنجده في آيتي (٦٣ و ٧٣) من سورة الكهف.

أمّا القلق الناجم عن عدم إمكان أداء المهمّة وتنفيذ الرسالة فيبرز في قوله: «اجْعَلْ لي وَزيراً مِن أَهْلي» (طه: ٢٩) وقوله: «وَأخي هارون ...» (القصص: ٣٤) هكذا يطلب موسى «من الله أن يقويه بإنسان آخر عليه لأداء مهمّته كما ينبغي ما يوحى بأنّ الجانب الغيبي لا يتدخل في تضخيم شخصية النبي على حساب بشريته العادية، بل يترك المسألة للطبيعة البشرية لتتكامل بطريقة عادية» (فضل‌الله، ١٤١٩: ج ١٥، ١٠٦). وهذه الرؤية موضوعية نحو البطل. أمّا القرطبي فله رؤية موضوعية أخرى بخصوص استعانة موسى بهارون في الإعلان عن رسالته فيقول: «في هذا دليل على أنّه من لا يستقل بأمر ويخلف من نفسه تقصيراً أن يأخذ من يستعين به عليه» (القرطبي، ١٩٦٤: ج ١٣، ٨٩).

وهكذا يعلّل السبب النفسي لاستعانته بأخيه مشيراً إليه في تعبيري: «لا يستقل بأمر» و«يخاف من نفسه تقصيراً»؛ أمّا نفسياً يعزى سبب هذا الاضطراب المشوب بالخجل إلى حصول خلل في تركيبه الجسدي وتحديداً في لسانه، حيث يقال حسب ما ورد في كتب القصص الأنبياء، أنّه كان مصاباً بلثغة أو عقدة من حين الصغر، لما تناول الجمرة لما خيّر بينها وبين التمرة فوضعها على لسانه فحصل فيه شدة في التعبير. أقول: لا شكّ، ناهيك عن مدى صحة هذه القصة، إنّه في حال حصول خلل في جسمه يؤثر ذلك على الحالة النفسية ممّا يجعل الفرد المصاب غير قادر على الإفصاح عن مقصده بوضوح.

وعالج البعض الأمر معالجة اجتماعية حتى لا ينساقوا وراء تأويلات تسيء إلى نزاهة شخصية موسى، فراحوا يعلّلون قوله تعالى: «هُوَ أَفْصَحُ مِنّي لِساناً» فقالوا: «من احتج في قصة سيّدنا موسى بقوله: «لا يَكادُ يُبينُ» أو بقوله: «هُوَ أَفْصَحُ مِنّي لِساناً» إنّما تلك هي اللكنة التي اكتسبها من معاشرة قوم مدين لا لعيب في لسانه وفصاحة هارون وإنّما هي معاشرة قوم فرعون واعتياد لغتهم» (الثعلبي، ٢٠٠٤: ج ٤، ٥٢٧). لكن هذا لا يتفق والسياق العامّ لسيرة النبي موسى (ع)، حيث مرّت عليه حادثات عظام أثرت في تركيبته النفسية فخلقت له بعض المشاكل كعدم الإفصاح.

٤. التساهي: قد يسهو الإنسان في بعض الأمور مهما بلغ شأوه ومهما علت مكانة فيقع إثره في بعض المشاكل فقد جاء في تفسير «البرهان» عن ابن بابويه بإسناده عن جعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه عن جعفر ابن محمد في حديث: «أنّ موسى لّما كلّمه الله تكليماً وأنزل الله عليه التوراة وكتب له في الألواح من كلّ شيء موعظة وتفصيلاً لكلّ شيء وجعل آيتة في يده وعصاه وفي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وفلق البحر وأغرق الله، عز وجل، فرعون وجنوده، عملت البشرية فيه حتى قال في نفسه: ما أرى الله، عزّ وجلّ، خلق خلقاً أعلم منّي، فأوحى الله إلى، عز وجل، إلى جبرئيل: يا جبرئيل أدرك عبدي قبل أن يهلك، وقل له: إنّ عند ملتقى البحرين رجلاً عابداً فاتّبعه وتعلّم منه، فهبط جبرائيل على موسى بما أمره به ربّه، عزّ وجلّ، فعلم موسى أنّ ذلك لما حدثته به نفسه، فمضى هو وفتاه يوشع بن نون حتّى انتهيا إلى ملتقى البحرين فوجدا هناك الخضر يعبد الله، عزّ وجلّ، كما قال الله، عز وجل، في كتابه: «فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنا وَعَلَّمْناهُ مِن لَدُنّا عِلْماً» (الكهف: ٦٥) (البحراني، ١٤١٧: ج ٢، ٦٤٥).

هكذا يتعرض البطل القرآني في مسيرته الدعوية لشتى الاختبارات؛ لكنّه يخرج منها كلّ مرّة متزوداً بتجربة جديدة يستثمرها لمتابعة حراكه الرسالي.

٥. هموم الرسالة: ظلّ همّ الرسالة أكبر همّ يحمله النبي موسى منذ أن اصطنعه ربّه لنفسه، وظلّ هذا الخاطر يراوده: كيف يستطيع النهوض برسالته وإبلاغها في مواجهة خصومه الألداء من فرعون وملائه والأقباط أو ممّن قاسى منهم ألماً من بني قومه وعلّيتهم،

فلم يكد يخرج من عناء إلّا حصل له عناء آخر فلزمته هموم الرسالة حتّى آخر لحظة من حياته المليئة بالتقلبات، فلا غرو أنّه لم يذق طعم الراحة يوماً، فلعلّ هناك من يسأل: هل قدّر له أن يعيش هذه الحياة الحافلة بالصراعات والتحديات والمواجهات في أكثر من جبهة ليفتن ويعلم مدى صبره واستقامته؛ أم طبيعة المرحلة التاريخية التي كان يعيشها اقتضت ذلك؛ أم هذا ثمن لا بدّ أن يدفعه الكبار من الأنبياء والأولياء حتّى مَعلماً به يتّضح به الحقّ للأجيال القادمة.

٣.٣.٤ حراك البطل والمؤثرات البيئيّة

ثمّة ظواهر بيئية وإنسانية لها تأثيراتها في تكييف حراك البطل الرسالي وفي شخصيته وفي قراراته الحاسمة وفي عموم سلوكياته وجملة صراعاته، حيث كان للنبي موسى مع كلّ هذه، شؤون وشجون. ومن أهمّ المؤثرات البيئية:

١.٣.٣.٤ العناصر البيئية

إحدى العناصر البيئية المهمّة في قصة موسى (ع) هي العصا، فالعصا باعتبارها وحدة سيمائية بارزة ومؤثرة لها حضور لافت ومثير للانتباه. لقد تحوّل هذا الكائن البيئيي إلى شخصية لعبت دورها الفاعل في قصص النبي موسى في فترة رسالته، فقد أصبحت له وزيراً آخر إلى جانب هارون ونهضت بمهام كبرى، منها أنها تنقلب حيّة تسعى وتلقف ما يأفكه السحرة.

من خلال العرض التالي نستشف بعض ملامح هذه الظاهرة السحرية والتي أوردتها بعض مصادر التراث: «كان لعصا موسى شعبتان ومحجن في أصل الشعبتين وسنان حديد في أسفلها، فكان موسى إذا دخل مفازة ليلاً ولم يكن قمر، تضيء شعبتاها من نور مدّ بصره، وكان إذا أعوزه الماء أدلاها في البئر فجعلت تمتد إلى قاع البئر وتسير في رأسها شبه الدلو ويستقي، وإذا احتاج إلى الطعام ضرب الأرض بعصاه فيخرج منها ما يأكل يومه، وكان إذا اشتهى فاكهة من الفواكهه غرزها في الأرض فتغضنت أغصان تلك الشجرة التي اشتهى موسى فاكهتها وأثمرت من ساعتها، وكان إذا قاتل عدوّه يظهر على شعبتها

تنينان يتناضلان» (المجلسي، ١٠٤٣: ج ١٣، ٦٠) إلى آخره من حكايات اشتهت نفوس القصاص ومخيالهم لتنبحها حول عصا موسى السحرية وهي إلى الفانتازيا أقرب منها إلى الواقع الذي يكتفي بأن يقال إنّها كانت وسيلة يعتمد عليها موسى (ع) في رحلته المجهولة واستخدمها للهش بها على الغنم فتتمثل في أنّها لعبت دوراً مهمّاً في الانقلاب الكبرى لدى السحرة، حيث أُلقي السحرة ساجدين بعد أن انقلبت حية تسعى، كما ضرب بها البحر فانفلق كلّ فرق كالطود العظيم.

أمّا العناصر البيئية الأخرى التي لعبت دورها في رسالة البطل الإيمانية وكشفت دلالاتها عن ملامح هذه الرسالة فهي: جبل الطور في شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة التي أصبح مكاناً له دلالاته ورموزه، ثمّ البحر، حيث انفلق فصار طريقاً يابساً سلكه بنو إسرائيل فتخلصوا من بطش فرعون وجنوده، ثمّ هنالك عناصر أخرى، هي عذابات أنزلها الله على قوم فرعون «أوّلها القحط والجدب بالسنين أصابتهم، حيث لا يستغل زرع ولا ينتفع بضرع، وثانيها النقص من الثمرات سبب الجوائح والعاهات، وثالثها الطوفان بكثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار، ورابعها الجراد فكان يغطى الخضراء ويحجب ضياء الشمس لكثرته وكان لا يترك لهم زرعاً ولاثماراً، وخامساً القمل وهو السوس الذي يفسد الحبوب، وسادسها الضفادع وقد كثرت عندما حتّى نغصت عليهم عيشتهم، حيث كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم وتقفر على فراشهم وملابسهم، وسابعها الدم فقد استحال الماء دماً فلا يستقون من بئر ولانهر إلّا انقلب إلى دم في الحال» (علّوش، ٢٠٠٣: ١٠٨-١٠٩). ومن هذه العناصر الأطعمة التي طلبها بنو إسرائيل بعد ما رفضوا الصبر على طعام واحد، فأصبحت تلك الأطعمة رمزاً لمزايداتهم والتواءاتهم السلوكية، فطلبوا «مِمّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِها وَقِثّآئِها وَفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها» (البقرة: ٦١).

٢.٣.٣.٤ العناصر الإنسانية

١. العبد الصالح: كان لموسى (ع) في لقاء مع العبد الصالح ظهور جديد يختلف تماماً عن ظهوره في قصة فرعون أو مواجهته مع السامريّ أو معاناته من قومه. فالبطل هنا مع كلّ ما يتمتع به من مكانة روحية وعقلية رفيعة يقف في حضرة عالم ببعض الأسرار وقفة

متعلم بسيط. فقد قُدّر له أن يرافق شخصية مغمورة يعرف بعض أسرار الحياة ممّا لا يطلع عليها موسى، ويمتلك من المعرفة ما لم يمتلكها المعروفون بمواقعهم الاجتماعية وقد بـــدرت من موسى حيال صاحبه أقوال أو أفعال تميزّت بالتسرع والتعجل وعدم الاصطبار.

يعلّل سيد قطب ظروف هذه المواجهة وملابساتها تعليلاً نفسياً اجتماعياً ويقول: «لقد نسي موسى ما قاله هو وما قاله صاحبه، أمام هذا التصرف العجيب الذي لا مبرّر لـــه في نظر المنطق العقلي! والإنسان قد يتصوّر المعنى الكليّ المجرد، ولكنّه عندما يصطدم بالتطبيق العملي لهذا المعنى والنموذج الواقعي منه يستشعر له وقعاً غير التصوّر النظري. فالتجربـــة العملية ذات طعم آخر غير التصوّر المجرّد. وها هو ذا موسى الذي نبّه من قبل إلى أنّـــه لا يستطيع صبراً على ما لم يحط به خبراً، فاعتزم الصبر واستعان بالمشيئة وبذل الوعد وقبـــل الشرط. ها هو ذا يصطدم بالتجربة العملية لتصرفات هذا الرجـــل فينـــدفع مســـتنكراً» (سيّد قطب، ١٤١٢: ج ٥، ٧٢-٧٣). هكذا أحدث لقاءه بالعبد الصالح انقلاباً معرفيـــاً فيه، كما غيرت هذه التجربة العلمية مسار الفكر لدى النبي موسى فيمـــا يتعلـــق بـــالنظر الآحادي الجانب إلى الأمور، فقد حيّرته تصرفات الرجل الغريبة في قصة خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار وجعلته في وضع يعيد فيه حساباته مع الواقع.

ولا تفوتنا الإشارة في هذا المقام إلى الجانب الفنّي الذي ينطوي عليه نصّ حكاية موسى مع عبد الصالح، حيث: «الحكي يفتتح مع الرؤية المحايدة ونقل الأصوات الشخصـــيات، فنحن نبدأ الرحلة إلى مجمع البحرين مع صوت موسى وفتاه منقولاً من خلال تقنية الرؤية المحايدة ذات الموقع الخارجي» (خضر، ٢٠٠٤: ٢٢٠).

٢. شخصيات ثانوية: ساهمت شخصيات ثانوية مساهمة إيجابية أم سلبية في أحـــداث القصص الموسوي حين تركت تأثيرها في مواقف البطل ومسيرية الدعوية وبعض هؤلاء من النساء وبعضهم من الرجال؛ أمّا الرجال فمنهم:

١.٢ النبي شعيب والذي التقى به موسى في مدين وقد ذكر *القرآن الكريم* ظروف هذا اللقاء، بقوله: «فَلَمّا جَاءَهُ ... نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (القصص: ٢٥) ثمّ لمّا أخبرتـــه ابنته أنّه (موسى) قويّ أمين، قال لموسى: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ ...» (القصـــص: ٢٧)

وكان لمعرفته بشعيب وزواجه مع ابنته (صفورة) أثر في حياته، فقد رعى أغنام شعيب لثماني حجج أو عشر بعد أن تسلّم عصاه منه ومن خلال رعيه للأغنام قويت شخصيته باحتكاكه المباشر مع الطبيعة الصلبة.

٢.٢ أخوه هارون، فقد طلب موسى (ع) من الله لما بعث نبيّاً أن يرسله معه ويشدّ به أزره ويشركه في أمره، بعد أن اعترفت أنّه أفصح لساناً منه، وهكذا أصبح هارون سنداً له ومرافقاً إلّا أنّنا لا نجد لهذه الشخصية حضوراً شاملاً إلّا في مسرح الحوار مع فرعون وفي قصة السامري.

٢.٣ مؤمن آل فرعون ولهذه الشخصية حضور فاعل في قصة مواجهة موسى مع فرعون وملائه وقد «كتمت هذه الشخصية إيمانها في مناخ المشرك وبقيت كذلك حتّى وجدت الموقف يستدعي إعلانها عن إيمانها وذلك بعد مشاهدتها لموقف فرعون وقومه من موسى (ع)» (البستاني، ١٤٢٢: ٢٥٤-٢٥٥).

٢.٤ هامان، وقد حيث كان وزيراً لفرعون ويتعاون معه في ظلم العباد. وخاطبه فرعون لما أراد أن يسخر من دعوة موسى بقوله كما جاء في *القرآن الكريم*: «فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ» (القصص: **٣٨**) ثمّ وصفه *القرآن* بأنّه كان من الخاطئين «... إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ» (القصص: ٨).

٢.٥ قارون، وكان ــ حسب الروايات ــ ابن خالة موسى أو ابن عمّه، فقد تكبّر على الناس واستطال عليهم بكثرة الأموال ويقال أنّ مفاتيح الحجرات التي تضمّ كنوزه كان يصعب حملها على مجموعة من الرجال الأشدّاء وكان قارون يخرج على القوم في زينته ويختال «أنعم الله على هذه الشخصية، لكنّها بغت وتجبّرت حتّى لفّتها نهاية كسيحة جواباً لعدم تثمينها لنعمة الله» (البستاني، ١٤٢٥: ج ٢، ١٦١). قال تعالى فيه: «إِنَّ قارُونَ كانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ» (القصص: ٧٦) ودخل العقلاء معه في مواجهة فنصحوه بالقصد والاعتدال، فكان ردّه «... إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندي» (القصص: ٧٨) حتّى أصبح عاجزاً لا ينصره أحد ولا ينتصر بجاه ومال «فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ» (القصص: ٨١).

ومن الشخصيات النسائية التي كان لها دورها في حراك البطل في مسرح قصصه:

١. أمّه التي عاشت لحظات رعب وقلق وألم خوفاً على وليدها، حيث تركت هذه الحالات تأثيرها على موسى. واضطرت الأمّ في تلك الظروف القاهرة العصيبة أن تلقى ولدها في اليمّ «وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً» (القصص: ١٠).

٢. أخته التي بصرت بموسى عن جنب بغفلة من قوم فرعون، فقد كانت حاضرة في قصر فرعون فتيسر لها أن تتابع أخبار موسى وتخبر الأمّ عن حال ولدها.

٣. وامرأة فرعون التي قالت لزوجها لما رأت أنّهم بصدد قتل موسى: «قُرَّتُ عَيْنٍ لي ...» (القصص: ٩) وكانت امرأة صالحة اعتنت بموسى وربّته واحتضنته، فصارت له أمّاً حنوناً.

٤. ابنتا شعيب اللتان رأتا من موسى الأمانة والمساعدة والعمل لله فقالت إحداهما لأبيها: «يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ...» (القصص: ٢٦) وهي التي بدر منها سلوك أخلاقي محمود حينما جاءت إلى موسى في استحياء «فجاءَتْهُ إحْداهُما ...» (القصص: ٢٥) فقد تميزت بخير أخلاق النساء وهو الحياء.

٥. رؤية نقدية

أمّا تاريخياً فقد يتساءل القارئ أنّ دور شخصيات خاضت مثل هذه الصراعات التي قد تبدو غير معنى بها الإنسان المعاصر قد انتهى بتغير محور الصراع وبتعبير آخر قد انتهت تاريخياً مرحلة صراعات محورها بعض المقاصد التي سعى النبي موسى (ع) لتحقيقها إثر تغيير كثير من ملامح المجتمعات الإنسانية، حيث صار العلاقات القائمة فيها معقدة متشابكة كما صارت همومها وطموحاتها مختلفة تماماً. أقول اللهم إلّا أن نؤول هذه الصراعات بأنّها تتمثل في الأنظمة الشمولية التي احتكرت الثقافة والاقتصاد والفكر وحاول بشتّى السبل تمريرها في بلاد الدنيا الشاسعة التي تحوّلت بفضل الثورة المعلوماتية إلى قرية صغيرة.

عدا هذا فإنّ القارئ العصري الذي يطّلع على مثل هذه الصراعات وعلى ممارسات هؤلاء الأبطال قد يتساءل نفسياً عن مدى تناغمه وتعاطفه معهم، وآية ذلك عدم شعورهم

بموضوعية بعض المواقف التي برزت في تلك القصص. نعم، قد يرضى عنها ويتعاطف معها انطلاقاً من موقعه الفكري والاجتماعي فيتصالح معها على مستوى العاطفة فقط لكن قد لا يعيرها اهتماماً نظراً لانشغاله، كما قلنا، لشؤون وشجون تخص العصر الراهن بفعل التغييرات العلمية العالمية.

وقد يتساءل أيضاً: هل تمثل الأدوار التي قام بها «البطل» تجربة تاريخية ثقافية انتهت وتلاشت وأصبحنا نحن اليوم نطالعها بوصفها جزءاً من التراث الماضي دون أن تكون لها مرجعية علمية ومعرفية. كما يقول بعض المفكرين المعاصرين وبالتالي لا بدّ من التعامل مع هذا البطل ومع سيرة الأبطال القرآنية وغيره من النصوص المقدسة عموماً من منطلق فكر تاريخي!

عموماً وبعيداً عن هذه الرؤية النقدية وما لها وما عليها، فإنّ النبي موسى عليه السلام الذي نال مقاماً كلمّه الله تعالى يعدّ أنموذجاً واقعياً لإنسان ظهر في مرحلة حرجة من تاريخ البشر فنصر الله ليجاهد فيه حق جهاده لإعلاء كلمته مع كلّ ما عاناه من مشقات وصعوبات. حتى أصبح نبيّاً مختاراً أدّى رسالة ربّ العالمين في أحلك الظروف التاريخية التي مرّت على بني الإنسان وتحوّل هذا البطل إلى أنموذج إنساني حيّ في الضمير الإنساني، شأنه شأن غيره من الأنبياء.

٦. النتيجة

نستنتج من كلّ ما سبق أنّ النبيّ موسى (ع) كأحد أبرز الشخصيات القصصية القرآنية تميز عن غيره من الأبطال، سواء في كثافة ظهوره في المشهد القرآني، حيث ورد ذكره أكثر من أيّ نبي آخر، أم في مواقفه وصراعاته ذات الطابع المفارقاتي والدراماتيكي إلّا أنّ هناك صفات وميزات روحية ونفسية طبعت سلوكه وأثرت في مسير حراكه الرسالي. فقد خاض موسى (ع) صراعات متعددة وفي غير جبهة ومع غير جهة ليحقق ما أراده الله تعالى لأهل الأرض من قيم الحق والعدل والمساواة، والوقوف أمام طغيان الشرك والتعالي، وتجشّم في سبيل هذه الرسالة الجليلة شتى صور العناء والعذاب في صراعه الخارجي مع

فرعون وأعوانه، أو مع بني إسرائيل أبناء قومه وكبارهم أو مع شخصيات أحاطته من أمثال ذلك العبد الصالح أو في صراعه الداخلي مع نفسه في غير موقف.

وبشكل عامّ، فإنّ موسى ينتمي اجتماعياً إلى بني إسرائيل لكنه يختلف عنهم بارتباطه بالله وطلب العون منه، سبحانه وتعالى، بيد أنّ هذا لا ينفي وجود خيط رفيع يربطه بالأوضاع النفسية التي تعيشها هذه الأمّة، من صلات دم ومن صلات معايشه، ونلحظ ذلك في أنموذج «الخوف» الذي يسم شخصيته في عديد من مواقفه القصصية وفي الأدوار المختلفة التي قام بها في تلك المواقف مع فارق بين هذا الخوف وذاك الذي يعيشه القوم.

الهوامش

١. أثبت رواة قصص الأنبياء بأنّ: «السامريّ كان على مقدمة قوم موسى يوم أغرق الله فرعون وأصحابه، فنظر إلى جبرئيل وكان على حيوان في صورة رمكة (هي الفرس تتخذ للنسل) وكانت كلّما وضعت حافرها على موضع من الأرض تحرّك ذلك الموضع فنظر إليه السامريّ وكان من خيار أصحاب موسى فأخذ التراب من حافر رمكة جبرئيل وكان يتحرك فصرّة في صرّة فكان عنده يفتخر به على بني إسرائيل، فلمّا جاءهم إبليس واتخذوا العجل قال السامريّ: هات التراب الذي معك فجاء به السامريّ فألقاه في جوف العجل، فلمّا وقع التراب في جوفه تحرّك وخار ونبت عليه الوبر والشعر، فسجد له بنو إسرائيل وكان عدد الذين سجدوا له سبعين ألفاً من بني إسرائيل فقال لهم موسى كما حكى الله: «وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّما فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي، قالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى» (طه: ٩٠-٩١) فهمّوا بهارون فهرب منهم وبقوا في ذلك حتّى تمّ ميقات موسى (ع) أربعين ليلة» (الطباطبائي، ١٣٧٤: ج ١٤، ١٠٦).

٢. ثمة طائفة من الآيات القرانية تفصح عن طبيعة هذه المفهوم منها آيات ٢٥-٣٥ من سورة طه: «قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)».

المصادر

القرآن الكريم.

ابن عاشور، محمد الطاهر (١٩٨٤ م). *تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير)*، تونس: الدار التونسية للنشر.

البحراني، هاشم بن سليمان (١٤١٧ هـ). *البرهان في تفسير القرآن*، قم: دار التفسير.

البستاني، محمود (١٤٢٢ هـ). *الإسلام والأدب*، قم: المكتبة الأدبية المختصة.

البستاني، محمود (١٤٢٥ هـ). *قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا*، قم: منشورات مؤسسة السبطين العلمية.

الثعلبي، محمد بن إبراهيم (٢٠٠٤ م). *تفسير سيّد كسروي حسن*، بيروت: منشورات دار الكتاب العلمية.

خضر، محمد مشرف (٢٠٠٤ م). *بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم*، القاهرة: منشورات دار العواصم للنشر والتوزيع.

الخطيب، عبد الكريم يونس (٢٠١٠ م). *التفسير القرآني للقرآن*، القاهرة: منشورات دار الفكر العربي.

الدقاق، عمر و التلاوي، محمد نجيب (١٤٣٦ هـ). *ملامح النثر الحديث وفنونه*، قم: منشورات ذوي القربى.

الري شهري، محمد (١٣٧٥ ش). *ميزان الحكمة*، قم: دار الحديث.

الطباطبائي، محمد حسين (١٣٧٤ ش). *تفسير الميزان*، قم: دفتر انتشارات اسلامى.

علّوش، عبد السلام (٢٠٠٣ م). *قصص القرآن*، بيروت: منشورات دار الفكر.

فضل‌الله، سيد محمد حسين (١٤١٩ هـ). *تفسير من وحي القرآن، سورة الشعراء*، بيروت: دار الملاك للطباعة و النشر.

القرطبي، محمد بن أحمد (١٩٦٤ م). *تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)*، القاهرة: دار الكتب المصرية.

القط، عبد القادر (٢٠٠٩ م). *من فنون الأدب (المسرحية)*، بيروت: منشورات دار النهضة العربية.

قطب، سيّد (١٤١٢ هـ). *في ظلال القرآن*، بيروت: دار الشروق.

المجلسي، محمد باقر (١٤٠٣ هـ). *بحار الأنوار*، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

وادي، طه (٢٠٠١ م). *القصة ديوان العرب*، القاهرة: منشورات الشركة المصرية العالمية.